١ - في الخدمة مدى الحياة

حدد الرئيس الراحل السادات الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ١٩٧٨ لمقابلتي في استراحة القناطر . ولما كان الاستدعاء بناء على رغبته دون تحديد موضوع المقابلة ، فقد أخذت معي حقيبة أوراقي التي تحتوي على بعض الموضوعات الهامة عن القوات المسلحة والموقف العسكري بيننا وبين إسرائيل ، على افتراض أنها ستكون موضوع المناقشة والبحث بعد اتفاقية كامب ديفيد .

قابلني الرئيس الراحل في الحديقة الفسيحة داخل الاستراحة . بدأ حديثه معي بالسؤال عن صحة زوجتي التي كانت تعاني من مرض الفشل الكلوي منذ حوالي سنتين ، قدمت لها مستشفى المعادي للقوات المسلحة الرعاية الطبية ، ثم أوصى الأطباء المعالجون بضرورة سفرها للخارج للعلاج في مستشفى « ليون » بفرنسا ، فقد يكون هناك أمل في إيقاف تدهور حالتها الصحية .

وانتقل السادات من الحديث الاجتماعي القصير إلى السياسة الداخلية ، ووصفها بأنها « مرحلة جديدة » تمر بها مصر وقال : ولذلك قررت إجراء تغيير شامل في مؤسسات الدولة وأجهزتها ، فوزارة السيد ممدوح سالم سيتم تغييرها ، ورئيس مجلس الشعب المهندس سيد مرعي سيتم الاستبدال به آخر ، وسيتم تعيين قيادة عسكرية جديدة .

واستطرد قائلاً ، إنه كلف الدكتور مصطفى خليل بتشكيل الوزارة الجديدة ، وأنها ستحلف اليمين يوم الخميس ٥ أكتوبر ١٩٧٨ . وأنه قرر تعييني مستشاراً عسكرياً له ، ويتولى الوزارة زميلي الفريق كمال حسن علي ، وتغيير إسم الوزارة من « وزارة الحربية »

لتكون « وزارة الدفاع » . كما أنه قرر أيضاً تعيين الفريق محمد على فهمى مستشاراً عسكرياً له ، وتعيين اللواء أحمد بدوى رئيساً للأركان بدلاً منه .

لم أعلق بأى كلمة على القرارات التى اتخذها ، وانصرفت عائداً إلى مكتبى .
وأخذت أفكر أثناء العودة فى الأسلوب الصحيح لتسليم قيادة القوات المسلحة إلى ميلى كمال حسن على ، ونقل مسئوليات رئيس الأركان إلى اللواء أحمد بدوى ، حتى لا يحدث أى فراغ فى المسئوليات بين القيادة الحالية والقيادة الجديدة فى أى وقت مهما كان قصيراً .

عندما وصلت إلى مكتبى بوزارة الحربية ، وجدت الفريق محمد على فهمى عائداً من منطقة قناة السويس مرتدياً بدلة الشغل (الأفرول) بعد أن حضر التجربة النهائية للعرض العسكرى الذى كان مقرراً إجراؤه يوم الجمعة ٦ اكتوبر ١٩٧٨ فى منطقة القناة .

لقد جرت العادة أن يجرى العرض العسكرى السنوى – احتفالاً بنصر أكتوبر – فى القاهرة . ولكن الموقف السياسى مع إسرائيل لم يكن مناسبا لاجرائه فى القاهرة فى ذلك العام . فقد كان مقرراً أن يسافر السادات إلى أمريكا لعمل مباحثات السلام مع إسرائيل باشتراك أمريكا فى سبتمبر ١٩٧٨ (مباحثات كامب ديفيد) ، وكان عمل قوات الطوارىء الدوليه فى سيناء ينتهى فى أكتوبر من نفس العام . وفى مؤتمر عقد فى الاسماعيلية قبل سفره لأمريكا اقترحت عليه إلغاء العرض العسكرى أو عمل عرض فى صورة محدودة عبارة عن تجميع مخفض للقوات فى منطقة القناة حيث يقوم الرئيس باستعراضها بالمرور عليها . وكان الهدف من ذلك أن تكون القوات فى منطقة القناة قريبة من المواقع التى يجب أن تتمركز فيها فى حالة الطوارىء تحسبا لأى تطورات غير منتظرة إذا فشلت المفاوضات فى أمريكا . وافق على العرض العسكرى المحدود فى منطقة القناة .

وفى الوقت الذى كان الرئيس الراحل فى أمريكا ، كنا فى القيادة العامة نراجع خططنا العسكرية ، ولم يكن من الممكن أن نكون على غير استعداد فى أى وقت . وعندما تم توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى واشنطن ، طلب الرئيس قبل عودته من أمريكا عمل العرض العسكرى فى القاهرة وأن يكون بقوات كبيرة .

اعتذرت له لضيق الوقت الذى لا يسمح بنقل المعدات الثقيلة – الدبابات بصفة خاصة – من منطقة القناة إلى القاهرة وكذا التدريب حتى يكون العرض لائقاً ومشرفاً .

أبلغت الفريق محمد على فهمى فى نفس اليوم – ٣ أكتوبر – بالتغييرات الجديدة فى القيادة العسكرية . قابلها بكل هدوء وقال ما معناه الحمد لله الذى وفقنا فى إنجاز مهامنا فى حرب أكتوبر وما بعدها حتى اليوم وهو تتويج لخدمتنا العسكرية .

واستعداداً لنقل المسئولية إلى القادة الجدد ، أصدرت الأوامر إلى اللواء أحمد بدوى بنقل مسئوليات وصلاحيات رئيس الأركان له اعتبارا من ذلك اليوم ، وانى سأظل مسئولاً عن قيادة القوات المسلحة حتى يؤدى الفريق كمال حسن اليمين الدستورية .

وعندما أدت وزارة الدكتور مصطفى خليل اليمين صباح يوم الخميس ٥ أكتوبر ١٩٧٨ ، كان ذلك هو نهاية خدمتى بالقوات المسلحة والعمل العام بالدولة .

حمدت الله وشكرته لأنه وفقنى لخدمة مصر وقواتها المسلحة بقدر ما استطعت . وتمنيت للقوات المسلحة دوام التقدم والتوفيق ، فهى أسرتى الكبيرة التى أمضيت فيها كل حياتى .

لقد بدأت حياتى العسكرية عندما التحقت بالكلية الحربية شاباً عمره سبعة عشر عاماً وواحد وعشرون يوماً .

ووجدت نفسى بعد تخرجى فى الكلية الحربية فى الخدمة بالصحراء الغربية ضمن قوات سلاح الحدود بين السلوم شمالاً وواحة سيوه جنوباً . عاصرت الهجوم الايطالى من ليبيا ضد القوات البريطانية فى الصحراء الغربية ، ونجاح الهجوم البريطانى فى معركة سيدى برانى التى انسحبت على إثرها القوات الايطالية إلى ليبيا .

وبرزت مشكلة فلسطين فى عام ١٩٤٨ بانشاء دولة إسرائيل ، وتحول الاهتمام إلى الشرق لمواجهة الخطر الجديد . وتعددت الحروب من حرب فلسطين عام ١٩٤٨ إلى حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ إلى حرب يونيو ١٩٦٧ ومنها إلى حرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ . وبذلك تكون قواتنا المسلحة قد أمضت ثلاثين عاما فى صراع عسكرى مع إسرائيل ، وكنت أحد الذين اشتركوا فى كل مراحل هذا الصراع عدا حرب فلسطين ١٩٤٨ التى كنت فى بعثة تدريبية خارج الجمهورية عند نشوبها .

واستعداداً لحرب أكتوبر تعينت رئيساً لهيئة عمليات القوات المسلحة فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٧٢ . ونتيجة لهذه الحرب توليت منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى منتصف ديسمبر ١٩٧٣ . وكنت من القادة الذين نالوا أفضل تكريم من الشعب فى مجلس الشعب مع ترقيتى لرتبة فريق .

لقد كان هذا التكريم هو أفضل ما حصلت عليه فى حياتى ، الأمر الذى ترك أثراً عميقاً فى نفسى لن أنساه . وهل يتمنى أى قائد عسكرى أكثر من ذلك فى ظل انتصار عسكرى ؟ لقد تصورت وتمنيت أن يكون عمل رئيس الأركان هو آخر وظيفة أتولاها ، وأترك الخدمة راضياً .

وشاءت إرادة الله أن يتغير طريق حياتى . فقد توفى وزير الحربية المشير أحمد إسماعيل فى المستشفى بلندن على إثر مرض أصيب به استدعى علاجه بالخارج أكثر من مرة . لقد صدمنى وأحزننى نبأ وفاته بحكم علاقة الخدمة العسكرية التى ربطتنا معا فى أوقات الشدة والأيام الصعبة . كنا فى الخدمة معا فى سيناء أثناء حرب يونيو ١٩٦٧ وشربنا كأس المرارة معاً . وكنا معا فى منطقة القناة أثناء احدى فترات حرب الاستنزاف وكظمنا غيظنا وتحملنا مُرها وحلوها . وكنا معا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وشربنا كأس الانتصار معاً .

كنت مع مجموعة من القادة نعمل ليلاً لتنظيم تشييع جنازة المشير أحمد إسماعيل قبل وصول جثمانه من لندن . أثناء هذا الاجتماع اتصل بى السفير حسن كامل رئيس ديوان رئاسة الجمهورية لابلاغى بتعيينى وزيراً للحربية وأنى سأحلف اليمين فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالى أى بعد ساعتين من انتهاء مراسم تشييع الجنازة .

وهكذا تسير الأمور فى الحرب . مقاتل يستشهد ويحل محله آخر .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة – وأخيرة – فى خدمة الدولة والقوات المسلحة . مرحلة جديدة يكون لى فيها دور سياسى بحكم منصبى الوزارى ، ودور عسكرى بحكم القانون وهو القائد العام للقوات المسلحة برتبة فريق أول اعتباراً من آخر ديسمبر ١٩٧٤ .

وكان من الطبيعى أن تكون المسئولية العسكرية لها الأسبقية الأولى والأهم بالنسبة لى – ولكل القوات المسلحة – لأن القتال فى حرب أكتوبر كان قد أوقف ، ولكن

الحرب مع إسرائيل لم تكن انتهت . كان علينا أن نعمل بكل إصرار للمحافظة على مكاسب حرب أكتوبر ، وأن نضع الدروس المستفادة منها موضع التنفيذ تطويرا وتنظيما وتخطيطاً وانضباطا الأمر الذى يتطلب استمرار العمل الجاد بنفس روح حرب أكتوبر .

لم أكن أريد لنفسى – ولكل القوات المسلحة – أن نعيش فى نشوة النصر فيتسرب إلى نفوس بعضنا أننا نمر فى حالة استرخاء عسكرى بعد الحرب . فقد كانت قواتنا بالجبهة فى سيناء يفصلها عن قوات العدو عدة كيلومترات تعمل فيها قوات الطوارىء الدولية التى لا تمنع أحد الطرفين – مصر وإسرائيل – من بدء الحرب فى أى وقت . وكان مطلوباً أن نعمل على رفع القدرة القتالية لقواتنا المسلحة أمام عدو يؤمن بعقيدة القوة ويعمل على رفع مستواه القتالى بصفة مستمرة . وقبل كل ذلك فإن جزءاً من سيناء ما زال محتلاً لا بد من تحريره بالقوة أو بالجهد السياسى الذى يحتاج إلى مساندة قوة عسكرية قادرة .

وقد عبرت عن الموقف بصراحة ووضوح فى بيان ألقيته أمام رؤساء وأعضاء لجان مجلس الشعب يوم ١٥ مارس ١٩٧٧ – ونشرته الصحف – قلت فيه :

« إن القوات المسلحة تدرك تماما ، أن هناك جزءاً عزيزاً من أرضنا ما زال محتلاً ، وبالتالى فإن معركتنا مع إسرائيل لن تنتهى إلا بتحرير الأرض كاملة . وعلى ضوء هذه الحقيقة تسير قواتنا على الطريق تستلهم نفس الروح التى خاضت بها حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، لا تفاخر بانتصارها ، ولا تستهين بعدوها ، واضعة فى اعتبارها أن الجهد السياسى المكثف والمستمر الذى يبذل لحل القضية حلاً عادلاً لا بد أن تسانده قوة عسكرية قادرة ومتطورة ... »

انطلقت القوات المسلحة منذ أكتوبر ١٩٧٣ لرفع كفاءتها القتالية وتطوير قدراتها العسكرية . ولقد كانت المهمة صعبة والمشاكل متعددة وكثيرة . وكان علينا أن نعمل على حلها بكل عزم وإصرار لكى تبقى القوات المسلحة قادرة دائما على إنجاز مهامها الاستراتيجية ، ومواجهة عدوها الذى لم يتوقف عن تدعيم قدراته العسكرية منذ حرب أكتوبر وحتى الآن . وفى الوقت الذى يتحدث فيه عن السلام بمفاهيم تتعارض مع جوهر العدل ، فإنه يستعد للحرب ولم يتوقف لحظة عن الاستعداد للحرب .

إن إسرائيل ، برغم التجربة القاسية المريرة التى مرت بها فى حرب أكتوبر ، وبرغم

الثمن الفادح الذى دفعته ،ما زالت تؤمن بعقيدة القوة ... ، وبدلاً من أن تسعى للسلام سبيلاً للأمن تدخل فى سباق رهيب لامتلاك القوة العسكرية . فما أن استردت أنفاسها بعد الحرب ، حتى انطلقت تسعى بكل الوسائل ، ليس فقط لإعادة بناء قدراتها العسكرية ، بل وإضافة الجديد إلى هذه القدرة ...

وإذا كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد حققت ، وما زالت تحقق ، الكثير من النتائج حتى الآن ، فإن ذلك لن يترك بين أفراد القوات المسلحة انطباعاً بأن السلام أصبح قريباً أو أن الحرب قد انتهت ، وإلا نكون قد أخطأنا فى حق أنفسنا وفى حق هذا الوطن ...

نريد أن تفهم إسرائيل أنه لا سلام مع احتلال الأرض ، ولا أمان فى ظل سباق التسلح . ونحن نعلم أن طريق السلام ، وإن كان يتطلب جهوداً سياسية كبيرة ووقتا طويلاً ، إلا أن طريق الحرب هو الطريق الصعب . لذلك فإننا إذا كنا ننشد السلام ، فعلينا أن نكون مستعدين للحرب » .

كان ذلك هو الواقع الذى تعيش فيه القوات المسلحة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ حتى تم توقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٨ .

دعوة لحضور العرض العسكرى (١٩٧٨) :

وكما سبق أن ذكرت ، كان صباح يوم الخميس ٥ أكتوبر ١٩٧٨ هو نهاية خدمتى فى القوات المسلحة والعمل العام .

وفى مساء نفس اليوم ، حضر إلى منزلى وزير الدفاع كمال حسن على لدعوتى – بناء على تعليمات الرئيس السادات – لحضور العرض العسكرى بمنطقة القناة صباح اليوم التالى – الجمعة ٦ أكتوبر ١٩٧٨ – وأن طائرة هليوكبتر ستكون فى مطار ألماظة الحربى لنقل الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الدفاع وأنا إلى مكان العرض . اعتذرت له شاكراً ، ولم أحضر العرض العسكرى ذلك العام .

لقد شعرت بالضيق والأسف لإختيار يوم ٥ أكتوبر لإجراء التغييرات فى القيادة العسكرية بحيث تكون القيادة الحالية التى كان لها دور رئيسى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بعيدة عن القوات المسلحة فى ذكرى الاحتفال بالنصر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٨ .

ألم يكن من الأفضل والأنسب أن يتم ذلك فى أى يوم آخر غير اليوم الذى حققت فيه مصر وقواتها المسلحة النصر ، وكان لنا شرف المساهمة فيه ؟

إن من سلطة رئيس الدولة تعيين وتغيير الوزارة والقيادات العسكرية العليا فى أى وقت ، ولكننى كنت آمل فقط أن يكون هناك حسن اختيار للتوقيت مراعاة للناحية المعنوية التى تعتبر عاملاً هاماً فى حياة كل مقاتل .

فى الخدمة مدى الحياة :

لم يخامرنى أى شك فى أى وقت أنه سيأتى اليوم الذى تنتهى فيه خدمتى فى العمل العام والقوات المسلحة برغم ما أعلنه الرئيس الراحل السادات أنى سأظل فى خدمة الدولة مدى الحياة .

فقد بدأ هذا الحديث معى فى مناسبة تعيين نائب رئيس الجمهورية . ففى يوم ما استدعانى الرئيس الراحل لمقابلته فى استراحة القناطر الخيرية . شرح لى باسهاب الحالة الداخلية فى مصر ونظام الحكم فيها منذ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وانتهى من هذا السرد الطويل الذى استغرق حوالى ساعة إلى أن قال إنه قرر تعيين نائب رئيس الجمهورية من « جيل أكتوبر » .

أخذ يشرح لى رأيه بالنسبة للفريق بحرى فؤاد زكرى ، ثم الفريق محمد على فهمى ، ثم أنا ثم الفريق طيار محمد حسنى مبارك بهذا الترتيب .

وعندما ذكر إسمى ، أشاد بما قمت به من عمل منذ أن كنت رئيساً لهيئة العمليات ورئيساً للأركان ثم وزيراً للحربية ، وقال لى : « أنت جريشكو مصر . ولا بد أن تبقى فى القوات المسلحة مدى الحياة . وستكون هذه هى وصيتى » .

ثم أنهى حديثه باختياره السيد / محمد حسنى مبارك لهذا المنصب .

وصدرت صحيفة أخبار اليوم يوم ١٩٧٥/٥/٣ برأى الرئيس السادات فى هذا الموضوع تحت عنوان كبير (خمسة كانوا مرشحين لمنصب نائب رئيس الجمهورية . حكم مصر أصبح مدنيا وسيبقى مدنيا . السادات أوصى بألا يترك الجمسى القوات المسلحة أبداً) .

طلب منى السادات تبليغ الفريق حسنى مبارك أنه حدد له ميعاداً لمقابلته بعد ظهر

نفس اليوم ، وقمت بابلاغ سيادته تليفونيا بالمقابلة دون الافصاح عن الغرض منها وبعد ذلك اتخذت الاجراءات الواجبة فى هذا الشأن إلى أن تولى سيادته منصب نائب رئيس الجمهورية .

وكان الرئيس السادات قد قرر تكريم قادة القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر والاستفادة من خبرات الأحياء منهم ، فأصدر قراراً بقانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٧٩ يقضى بذلك[1] :

وجاء فى مذكرته الايضاحية :

« إن الدول الكبرى العريقة فى الجندية وأصولها تكرم قادتها العسكريين الذين حققوا لها النصر فى الحروب المصيرية لأوطانهم بأسلوب يتناسب مع عظمة أعمالهم ، ويعكس مدى وفاء وتقدير شعوبهم لبذلهم وعطائهم . وهناك الكثير من الأمثلة فى الدول الكبرى غربية كانت أم شرقية على تقدير وتكريم كبار قادتها وأبطال حروبها والاستفادة بخبراتهم مدى الحياة .

وبالنسبة لمصر ، فقد كانت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نقطة تحول تاريخية على المستويين الوطنى والقومى . وكانت أول مواجهة حقيقية خلال مراحل الصراع العربى الإسرائيلى بين الجيوش العربية والجيش الإسرائيلى . ومهدت نتائج هذه الحرب الطريق أمام تحرير الأرض العربية المحتلة وتحقيق السلام القائم على العدل فى المنطقة العربية .

وقد رئى اقتراح مشروع القرار بقانون تعبيراً عن شكر الشعب وعرفانه للقوات المسلحة وقادتها خلال حرب أكتوبر المجيدة .

ويهدف هذا القانون إلى جانب تقدير وتكريم قادة هذه الحرب الظافرة ، إلى تحقيق وضع خبراتهم النادرة فى خدمة القوات المسلحة والدولة مدى حياتهم ، وهى الخبرة التى اكتسبوها خلال خدمتهم الطويلة بالقوات المسلحة حيث عاصروا نشأتها الحديثة والتطورات التى طرأت عليها والمعارك المتعددة التى خاضتها . وقد توجت

---

(١) صدر هذا القانون بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل . وكنت قد تركت الوزارة فى ٥ أكتوبر من عام ١٩٧٨ . كنت رسميا معينا مستشاراً لرئيس الجمهورية ، ولم يكن قد قبل استقالتى حتى ذلك الوقت ثم قبلها فى عام ١٩٨٠ .

هذه الخبرة بما أثبتوه من قدرة عالية فى فنون القيادة والقتال خلال عمليات حرب أكتوبر وتحملهم أعباء مسئولياتهم الجسام أثناء الاعداد للقوات والتخطيط للعمليات وأثناء إدارة أعمال القتال بكل الكفاءة والاقتدار » .

تلك كانت بعض فقرات المذكرة الايضاحية للقرار بالقانون الذى عرض على مجلس الشعب ، وتمت الموافقة عليه وإصداره والعمل به من تاريخ صدوره (٢٦ مايو ١٩٧٩) .

ويقضى القانون « بأن يستمر الضباط الذين كانوا يشغلون وظائف رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وقادة الأفرع الرئيسية فى حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ فى الخدمة بالقوات المسلحة مدى الحياة[1] .

وأن يقوم هؤلاء القادة بتقديم المشورة وإبداء الرأى – عندما يطلب منهم ذلك – فى الموضوعات العسكرية ذوات الأهمية الخاصة ، وبذلك يظلون مدى الحياة مستشارين عسكريين أمناء للقوات المسلحة . هؤلاء القادة لن يشغلوا وظائف عسكرية داخل الهيكل التنظيمى للقوات المسلحة ، حتى لا يتناقض تكريمهم والاستفادة من خبراتهم النادرة مع مبدأ التجديد والاستمرار ، وفتح الباب والمجال أمام قادة الصف الثانى للترقى وشغل مناصب القيادة العليا بنفس الكفاءة والقدرة التى تحققت لمن سبقهم . ولا شك أن قواتنا المسلحة قادرة على إبراز جيل لاحق من القادة الذين يتمتعون – بالخبرة والممارسة – بما حققه الجيل السابق عليهم من قدرة وكفاءة » .

تلك كانت فكرة الخدمة مدى الحياة التى صدر بها قانون لم ينفذ .

رفع العلم على العريش :

وكنت فى حياتى المدنية ، منذ أن تركت الوزارة ، أقضى وقت الفراغ فى القراءة والكتابة وزيارة عائلتى من حين لآخر فى قرية البتانون – إحدى قرى المنوفية – التى ولدت ونشأت فيها .

---

(١) ينطبق ذلك على الفريق مبارك والفريق محمد على فهمى والفريق زكرى والفريق أول الجمسى وهم قادة القوات الجوية والدفاع الجوى والبحرية ورئيس هيئة العمليات .

وفى شتاء عام ١٩٧٩/٧٨ ، وكنت فى ذلك الوقت مستشاراً لرئيس الجمهورية للشئون العسكرية من الناحية الرسمية ، أبلغتنى سكرتارية الرئيس أنى سأرافق الرئيس فى اليوم التالى عند سفره لأسوان لقضاء فترة راحة هناك ، وهى الزيارة التى يقوم بها سنويا حيث يقضى الشتاء هناك .

كانت إقامتى هناك فى استراحة وزارة الرى قضيتها فى القراءة . وبدعوة من الرئيس تناولت معه طعام العشاء أكثر من مرة ثم يلى ذلك مشاهدة أفلام سينمائية .

خلال إقامتى هناك حضر شاه إيران مطروداً من طهران بعد إندلاع الثورة الايرانية برئاسة الخمينى . نزل من الطائرة يبدو عليه الارهاق والاحباط ترافقه زوجته وعدد قليل من المرافقين الايرانيين . استقبله السادات بالمطار استقبالاً ودياً بحرارة .

ودار حديث الرئيس السادات معى عن الموقف فى إيران ، وكان فى تقديره أن الشاه سيعود مرة أخرى إلى طهران بعد أن يقوم الجيش الايرانى بعمل مضاد ضد ثورة الخومينى ويطالب – بالقوة – بعودة الشاه إلى الحكم . لقد كان السادات معجباً أشد الاعجاب بالشاه ، وكان يعتبره من الحكام الأقوياء والأكفاء فى المنطقة والذى لعب دوراً بارزاً فى سياسة الشرق الأوسط ، وأنه يفرض سلطته ونفوذه فى المنطقة بالقوة والحكمة السياسية التى تجعل أمريكا تنظر له نظرة خاصة ، ولا بد أن تعمل لاعادته للحكم كما حدث من قبل أثناء ثورة مصدق . ووصل بالسادات الخيال إلى أن الشاه – عندما يعود لوطنه – سيقترح عليه نقل جزء كبير من سلاحه الجوى القوى المتمركز فى مصر .

كانت لى وجهة نظر أخرى هى أن الشاه لن يعود مرة أخرى أمام هذه الثورة ذات الطابع الدينى من جهة ، ولأن الشعب تخلص من حاكم كان يحكمه بالحديد والنار ، فضلاً عن أن الجيش وسلاح الطيران الايرانى غير قادر على مواجهة هذه الثورة وهى ثورة شعب وليست ثورة فرد أو مجموعة من الأفراد . وقلت له أنى قمت بزيارة إيران زيارة رسمية زرت فيها القوات الإيرانية من جيش وطيران وبحرية وعدت من الزيارة – كما سبق تبليغها للسادات فى حينه – بانطباع أن هذه القوات مظهرها خادع للقوة الحقيقية والكفاءة القتالية التى تفتقدها . ووصلت إلى هذه النتيجة بعد زيارات تخصصية وأسئلة تكتيكية وفنية لبعض القادة والجنود لمعرفة مهاراتهم القتالية الحقيقية . لقد كانت القوات الإيرانية تمتلك الأسلحة الكثيرة المتطورة والحديثة ولكن

الأفراد غير مؤهلين وغير قادرين على استخدامها الاستخدام الصحيح في الحرب، وكان يغطي هذا العجز وجود عدد كبير من الخبراء الأمريكيين في كل مجال قمت بزيارته.

بعد أن استمع السادات لوجهة نظري، قال إن ولاء القوات الايرانية للشاه ليس موضع شك، وأن أمريكا - في تقديره - ستعمل على استمالة هذه القوات لإعادته للحكم، ويكون بذلك أقوى مما كان من قبل.

لقد أثبتت الثورة الايرانية أن الشاه برغم قوته وسلطته الفريدة في حكم البلاد إلا أنه كان يعيش في برج عال بعيداً ومنفصلاً عن الشعب الذي كان يعاني من قسوة الحياة حتى أصبح مغلوباً على أمره ينتظر الخلاص.

وبعد عدة أيام قضيتها في أسوان قابلني السادات فيها أكثر من مرة، لم يحدثني في أي موضوع هام سواء في سياسة مصر الداخلية أو الخارجية كما لم يحدثني عن الاستراتيجية العسكرية لمصر أو لإسرائيل أو القوتين الأعظم في المنطقة. ومن هنا استأذنت للعودة للقاهرة.

كان من الطبيعي أن أتابع تطور الأحداث بعد اتفاقية كامب ديفيد، وخطوات معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل التي كان يتم بحثها في ذلك الوقت إلى أن تم الاتفاق عليها وإعلانها.

وحان الوقت للاحتفال باستعادة العريش ورفع العلم عليها بعد أن غاب عنها طويلاً.

عندما وصلتني الدعوة لحضور هذا الاحتفال الشعبي هناك، وجدت نفسي مندفعاً للاشتراك في الاحتفال باستعادة جزء من أرضنا استشهد لنا فيها الآلاف من رجال القوات المسلحة، ولها - ولكل حبة رمل من سيناء - ذكريات كثيرة وعميقة في نفسي كما هي كثيرة وعميقة لدى كل الرجال الذين بذلوا العرق والدم والروح سنوات طويلة دفاعاً عن مصر من هذا الأتجاه الاستراتيجي الخطير.

لقد كنت أشعر بأن مصر بدأت تجني ثمار النصر في حرب اكتوبر، واستبعدت من تفكيري محتويات ومشتملات اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل بما فيها من سلبيات، ووجدت نفسي مع باقي المدعوين في العريش.

حضرت الاحتفال، وكان لي شرف تقبيل العلم المصري - ضمن مراسم الاحتفال - الذي ارتفع عالياً في سماء سيناء. وعدت بعد ذلك مباشرة للقاهرة لأستعيد ذكريات كثيرة عن سنوات طويلة مضت. وكان السؤال الذي يلح عليَّ هو «هل حرب أكتوبر هي آخر الحروب؟».

وكانت الحقيقة المؤكدة أمامي «أن حرب أكتوبر ليست آخر الحروب».

وفي حوالي الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم الاحتفال، طلبني تليفونياً المرحوم الأستاذ علي حمدي الجمال رئيس تحرير جريدة الأهرام لتهنئتي باستعادة العريش كثمرة من ثمرات حرب أكتوبر وتهنئتي بترقيتي لرتبة المشير، ولم أكن أعلم بهذه الترقية.

وبعد قليل أخطرتني رئاسة الجمهورية بالخبر، وطلبت مني - بناء على تعليمات الرئيس السادات - أن أتواجد في بورسعيد صباح اليوم التالي لاحتفال العريش لمرافقة الرئيس في رحلة بحرية من بورسعيد إلى الاسماعيلية. وكان هو اليوم الأول والأخير الذي ارتدي فيه الملابس العسكرية برتبة مشير. ركبنا اليخت «الحرية»، وكان به نائب الرئيس حسني مبارك ووزير الدفاع كمال حسن علي ومجموعة من مصابي العمليات في حرب أكتوبر من الضباط والجنود. وكان حديثنا أثناء الرحلة عن ذكريات تلك الحرب والشرح والتعليق على أنقاض حصون خط بارليف التي نمر عليها ومواقع الكباري التي أنشأتها قواتنا المسلحة.

لقد سبق أن قمنا بنفس هذه الرحلة عام ١٩٧٥ عند افتتاح الملاحة بقناة السويس على سطح مدمرة من قواتنا البحرية بينما كانت قواتنا المسلحة في أعلى درجات استعدادها للقتال في هذا اليوم، أما هذه الرحلة فقد كانت على ظهر يخت مخصص للرحلات البحرية لرئيس الجمهورية. . . لقد انتقلت مصر من مرحلة الحرب الى مرحلة السلام.

وفي الاسماعيلية صافحت الرئيس السادات وعدت مباشرة للقاهرة.

وكان ذلك آخر لقاء لي مع الرئيس الراحل.